موقف النورسي من السببيّة

الدكتور مصطفى أبوصويّ

جامعة القدس

مقدمة:

إن هذا البحث يعتمد على تحليل المادة المتعلقة بموضوع السببية كما وردت في (الكلمات)، ولعل في ضخامة هذا الكتاب ما يعبر عن فكر النورسي -رحمه الله- ويكون ممثلاً له بما يفي بالغرض المطلوب من مثل هذا البحث، من خلال هذه الندوة المعقودة للتعريف بأفكار النورسي وشخصيته ومواقفه، ومنها موقفه من السببيّة.

وسأبدأ البحث بلمحة تاريخية حول موضوع السببيّة، مع إجراء بعض المقارنات بين الغزالي والنورسي (رحمهما الله) من حين لآخر فيما يتعلق بالسببية؛ لأن الغزالي يحتل مكانة مرموقة في تاريخ الفكر عامة، ولتصريح النورسي بالعلاقة الوثيقة التي تربطه بالإمام الغزالي على بعد الزمن بينهما، وذلك لشربهما من نفس النبع الصافي.

لمحة تاريخية:

درج العلماء منذ وقت طويل على معالجة إشكالية السببيّة، وقد كان الغزالي (ت ١١١١م) -رحمه الله- من السابقين إلى طرح مفاهيم عن السببية في كتابه تهافت الفلاسفة، تردد صداها طويلا في تاريخ الفكر، وسبق بها التجريبيين الأوروبيين أمثال ديفيد هيوم (ت ١٧٧٦م). لقد نفى الغزالي في هذه المفاهيم العلاقة الضرورية بين الأسباب والمسببات، ونسب العلاقة إلى التساوق في وجود «السبب» و«المسبب»، وأن مرد ذلك إلى العادة فقال:

«الاقتران بين ما يعتقد في العادة سبباً، وبين ما يعتقد مُسبباً، ليس ضرورياً عندنا... فإن اقترانها [الأسباب والمسبّبات] لما سبق في تقدير الله سبحانه، بخلقها على التساوق، لا لكونه ضرورياً في نفسه غير قابل للفرق»[1].

وهكذا نجد أن التعرض لمثل هذه المواضيع كان من دأب كبار العلماء والمفكرين، ولم يشذ النورسي عن هذه القاعدة، فقد ناقش إشكالية السببية في مواطن عديدة من كتاباته.

لماذا التعرض للسببيّة؟

ينبغي أن ننبه هنا إلى اختلاف الظروف الموضوعية التي أحاطت بالنورسي، والتي تختلف عن تلك التي أحاطت بمن سبقه من أمثال الغزالي، فأدى ذلك إلى اختلاف في الأسلوب والأهداف الفرعية، فضلاً عن بعض الإختلافات في ماهية العلاقة بين الأسباب والمسببات، ولكن الأخيرة لا تمت إلى الظروف الموضوعية بصلة.

فالغزالي كان يكتب حول موضوع السببية للعلماء فجاءت كتابته مختصرة، وكان نقده موجهاً بالدرجة الأولى للفلاسفة «المسلمين» الذين تأثروا بالتوجّهات المادية للفلسفة اليونانية. وقد وقف الغزالي موقفاً حازماً تجاه الوافد من الغرب، الذي يختلف مع نظرة الإسلام للإنسان والكون والحياة. ولم يعترض على العلوم التي لا تصطدم مع الدين، مثل الرياضيات كما بيّنه في «المنقذ من الضلال». وقد كان الغزالي واعياً لدوره في محاربة تيار الفلسفة اليونانية، وطالب بوحدة المسلمين على اختلاف مشاربهم في مواجهة هذا العدو الخارجي، وطلب منهم نبذ خلافاتهم جانباً حتى يتسنّى لهم صد ذلك التيار. وتلقت الفلسفة على يديه ضربة لم تستطع أن تفوق منها.

وأما النورسي، فقد كان واعيا لقضية التغريب الثقافي، وانبهار الناس بالحضارة الغربية، والأفكار العلمانية؛ التي فشت في أوساط العلماء والعوام، فكانت كلماته

---

(١) الغزالي: تهافت الفلاسفة، تحقيق سليمان دنيا، ص ٢٣٩.

obeikandl.com

تخاطب جميع المستويات؛ لعموم البلوى بالعقلانية المحدثة الوافدة من الغرب، التي عبدت الأسباب الطبيعية، ووقفت عندها، ولم تستطع أن تتعدّاها. ومما لا شك فيه أن «العقلنة» هذه ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالعلمنة[١]، وهما وليدتا منظومة فكرية غربية تشكلت في الوعي الأوروبي نتيجة الظلامية التي عاشتها أوروبا، وعانت منها حينما كانت الكنيسة تعرض رؤيتها المخالفة للعلم بالحديد والنار، وكانت تقتل العلماء؛ فأدت إلى فصام نكد بين «العلم» و«الدين».

ولعلّ هذا كان ضرورياً بالنسبة لأوروبا، ولكنه لا يصح أبداً في حق الإسلام والمسلمين؛ الذين حملوا الشعلة التي بددت ظلام أوروبا، وأنارت درب علمائهم بشهادة مفكريهم، من أمثال جان جاك روسو في مقدمة إحدى رسائله[٢].

فهذا الدين الذي كان أول الوَحي فيه «اقرأ» لا يقبل «العلمنة» التي ابتلي بها أبناؤه، والتي حاول النورسي جاهداً إيجاد جيل واع من الشباب يستطيع مواجهتها، وخلق تراث فكري يعد دواء ناجعاً لمثل هذا المرض.

ولا بد أن مفهوم الضلال عند النورسي يرتبط ارتباطاً عضوياً بالعلمنة، ولا ينفك عنها، فقد ذكر أن عدم إدراك البعض لماهية الأسباب، والتي هي حجب وستائر (أمام القدرة الإلهية) ليس إلا، يعود إلى الجهل المريع الناشيء من الضلال، والتمرد المقيت المتولد من الزندقة[٣].

---

(١) أرى التنبيه إلى أن ترجمة كلمة Secularism إلى «علمانية» لا يوجد له ما يبرره. ولعل ترجمتها «الدنيوية» أصح، ولو أريد تسمية الظاهرة بدلا من الترجمة فالعلمنة تشير إلى عملية الانتقال من المجتمع الديني إلى المجتمع اللاديني. ومن هنا فإن ربط «علمانية» بمادة (ع-ل-م)، وهي مادة ترتبط بالعلم والمعرفة، كان ربطاً ذكياً ولكنه غير صحيح، وإنما أراد المفكرون الذين تلوثت أفكارهم بالنموذج المعرفي الغربي تمرير هذا المصطلح من خلال هذا الربط. انظر. د. عبد الوهاب المسيري: «العلمانية... رؤية معرفية»، «منبر الشرق»، العدد ٣، ١٩٩٢م.

(٢) Jean Jacque Rousseau, "Discourse on the Sciences and the Arts", The Basic Political Writings, Donald Cress, trans. (Hackett; Indianapolis, 1988). p.3.

(٣) الكلمات، ص ١٩٩.

obeikandi.com

السببية والتقدم:

والعقلانية الوافدة أفرزت موقفاً «علمياً» لا يقبل بطروحات تبتعد عن دائرة المعهود في ربط الأسباب بالمسببات ضمن النظرة «الطبيعية»، وبعيداً عن الماورائيات. بل تهاجم هذه «العقلانية» أي شخصية لها تفسير مغاير لنظرتها، وضمن ذلك ما يتعلق بالسببيه، فلا زال الكثير من مفكري المسلمين ومثقفيهم لا يفقهون الخلفية التي انطلق منها الغزالي على سبيل المثال، والرسالة التي أراد أن يوصلها إليهم. بل بلغ الشطط ببعض العرب النصارى أن حَمّل الغزالي مسؤولية تخلف الأمة الاسلامية زوراً وبهتاناً، فقد ذكر القرضاوي أنه قرأ في كتابٍ صَدَرَ في سلسلة (عالم المعرفة) أن «انطونيوس كرم»، قد حَمّل الغزالي والمدرسة التي يمثلها نتيجة تخلّف الأمة وسقوط حضارتها»![1]

لقد وصل هيوم ومالبرانش وبيركلي إلى بعض ما وصل إليه الغزالي؛ فلم يتهمهم قومهم بإعاقة التقدم المدني، وظلت مكانتهم محفوظة في تاريخ الفكر الغربي، بل يمكن اعتبار المدرسة التجريبية إلى حد ما حلقة في السلسلة التي أدت إلى التقدم في الغرب.

إنني أعجب كيف يمكن لمليار وثلث من المسلمين عجزوا عن الشهود الحضاري في زماننا هذا؛ أن يربطوا ذلك بفكرة وردت عند أحد علماء المسلمين قبل أكثر من تسعمائة سنة!

إن النظرة «الطبيعية» للعلاقة بين الأسباب والمسببات تؤدي إلى القول بوجود آلية مطلقة فيها، وهذا نتاج التوجهات المادية في الفلسفة، وبالتالي يحجب هذا المفهوم الإنسان عن ربه، وتصبح «الدنيا ستاراً كثيفا يحجب الآخرة».

«فالفلسفة»، كما قال النورسي: «تمنح التأثير للأسباب، وتعطي بيد الطبيعة الإيجاد والإبداع، فلا ترى الآيات المتلألئة على كل موجود، الدالة على الخالق العظيم».

---

(١) يوسف القرضاوي: الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه، ص ١٧٥.

obeikandl.com

ولكن الذي يربط الأسباب والمسببات بمشيئة الله يرى في «التغيرات والحركات الناتجة عنها حركات قلم القدرة الإلهية لدى كتابتها رسائل صمدانية على صفحة الوجود»[1].

إذاً المطلوب هو إحداث الوعي، وتدريب العقل على الذهاب إلى أبعد من الرؤيه «الطبيعية» التي تعمّق الغفلة في الإنسان، وتضاعف من لوثات الدنيا وشوائبها؛ حتى «أنسته الصانع الجليل، والآخرة البهيجة»[2].

وقد ردّ النورسي على ادعاء الفلاسفة «أن العلم الإلهي لا يتعلق بالجزئيات». وهذا الادعاء ذكره الغزالي في «تهافت الفلاسفة» ضمن القضايا الثلاث التي كفّر الفلاسفة فيها. وعلاقة هذه المقولة بالسببيه تكمن في إخراج الجزئيات الحادثة من علم الله، تعالى عمّا يقولون علواً كبيراً، فتكون النتيجة المنطقية؛ أنه إذا لم يعلم بالحوادث لم يتدخل في الأسباب، والنتائج المتعلقة بها، فيصبح من هذا الباب، جل وعلا، كإله أرسطو الذي لم يتدخل في شؤون العالم بعد الدفعة الأولى، أو كإله أفلوطين الذي لم يتدخل أصلاً في خلق العالم!

وهكذا نرى في ردّ النورسي على ادعاء الفلاسفة ربطاً للجزئيات بعلم الله ومشيئته، فتنظيم وتسخير وإدارة وتدبير المنظومة الشمسية، وكل أعضاء الإنسان وكرياته وأعصابه ضمن تدبيره: «وما دامت كل حجيرة، وكل كرية دموية منقادة لأوامره سبحانه، وضمن تدبيره وتصريفه الأمور، وتتحرك وفق قانونه، فلا بد أن جميع موادها الأساسية، وجميع ذراتها التي تنتج منها نقوش صنعها في قبضة قدرته، وضمن دائرة علمها بالضرورة، ولا بد أنها تتحرك بانتظام وتؤدي الوظائف على أتم وجه بأمره وإذنه وقوته. إذ الله تعالى هو الذي يدبّر الأمر ليل نهار»[3].

ولقد كان النورسي عالماً بحقيقة الأسباب والمسببات وأنها حادثة: «وكل مُحْدَثٍ لا بد له من محدِث؛ أي: موجد، لذا فالكون لا بد له من موجِد قديم»[4].

---

(1) الكلمات، ص ٥٩٠.

(2) المصدر نفسه، ص ٦٤٦.

(3) المصدر نفسه، ص ٥١٠.

(4) المصدر نفسه والصفحة.

obeikandl.com

ومن لم يكن واجباً قديماً أزلياً لا يكون إلهاً، أي إن كان حادثاً زمانياً. إن هذه الجملة الأخيرة، التي تدل على تمكن النورسي من مصطلح الفلسفة، ترد شرك عبادة الأسباب، ومثال «على عبادة الطبيعة»، أو أي جزء منها[1].

وظائف الأسباب:

وقد بيّن النورسي بعض وظائف الأسباب، ومنها اقتضاء عزة الألوهية وعظمتها، أن تكون الأسباب الطبيعية أستاراً بين يدي قدرته تعالى أمام نظر العقل[2].

إذاً، فالأسباب ليس لها أي تأثير حقيقي في الإيجاد والخلق، وهنا يوجد اختلاف بين الغزالي والنورسي، فالأول جعل العلاقة منشؤها العادة الناتجة عن التساوي، وأما الأخير فلم ينكر التأثير، ولكنه ليس على وجه «الحقيقة»: «إن المسببات قد ربطت بالأسباب بمقتضى المشيئة الإلهية وحكمتها، ولاستلزام ظهور كثير من الأسماء الحسنى (وهنا وظيفة أخرى للأسباب)، يربط كل شيء بسبب، ويقتضي التوحيد والجلال؛ أن تسحب الأسباب الطبيعية يدها عن التأثير الحقيقي في آثار القدرة الإلهية»[3].

وهكذا يصل النورسي إلى رؤية الأسباب على أنها «أغلفة المصنوعات الربّانيّة، وظروف الهدايا الرحمانية»[4].

وأما عن الحكمة وراء هذا التغليف، بالإضافة إلى ما سبق من وظائف الأسباب، فنجده في قول النورسي: «ذلك لئلا تظهر مباشرة يد القدرة في أمور جزئية خسيسة، لا يدرك نظر أكثر الغافلين حسنها ولا يعرف حكمتها»[5].

---

(1) الكلمات، ص ٦٤٦.

(2) المصدر نفسه، ص ٧٢٤.

(3) المصدر نفسه، ص ٨٢٥.

(4) المصدر نفسه، ص ٨٤٠.

(5) المصدر نفسه والصفحة.

مُسبب الأسباب:

ومما يلفت الانتباه، معرفة النورسي وتوظيفه لدور علماء الكلام في بيان ثانوية دور الأسباب؛ حيث يقول: «ولقد فنّد علماء الكلام فكرة الدور والتسلسل، وأثبتوا بطلانها .. وقطعوا سلسلة الأسباب والمسببات، وأثبتوا بذلك واجب الوجود»، ويستدرك النورسي مباشرة: «أنه مع قوة حجة علماء الكلام هناك حجة أقوى. إن إظهار الختم الخاص للخالق الجليل على كل شيء، المختوم به كل شيء، لهو أسهل وأقوى وضوحاً من برهان انقطاع سلسلة الأسباب، ثم بلوغ إثبات الخالق جل وعلا[1].

ومن الجدير بالذكر، أن هذه الفكرة السابقة تكررت كثيراً في كتاباته، وأن العشرات إن «لم يكن المئات» من «الأمثلة قد ضربت لإيصال القارئ، وتدريبه حتى يستطيع تعدي دائرة الأسباب والمسببات بسهولة ويسر إلى مسبب الأسباب، فالذي يوجد المسببات هو غير الأسباب[2].

ولو ضربنا مثالاً من الأمثلة الكثيرة، أو التشبيهات التي حاول النورسي من خلالها نقل القارىء عبر حاجز الأسباب؛ لذكرنا ما ورد في الكلمة الثانية والعشرين حيث تبين أنّ انعكاس صورة الشمس في قطرات الماء، وقطع الزجاج؛ يدل في ظاهره على شموس لا تحصى بدلاً من شمس واحدة، وهكذا مسبب الأسباب، فإذا لم تسند كل شيء إلى القدير، لزم قبول آلهة غير متناهية بعدد ذرات الكون[3]. وهذا هو أساس فكرة عبادة الطبيعة[4].

ويؤكد النورسي على نفس الفكرة حيث يوضح أن الإبداع الظاهر على المسببات «وروعة جمالها قد عزلت الأسباب وسلبتها قدرة الخلق، ودلتنا بلسان حالها على مسبب الأسباب، وسلمت الأمور كلها بيد الله ﴿وإليه يرجع الأمر كله﴾» (هود، آية ١٢٣)[5].

---

(١) الكلمات، ص ٨٤٠.

(٢) المصدر نفسه، ص ٧٢٧.

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٢٦.

(٤) المصدر نفسه، ص ٨٢٦.

(٥) المصدر نفسه، ص ٨١٩.

بل بلغت ثقة النورسي بما هو عليه إلى تشخيص الأسباب والحديث على لسانها، حيث تقف عاجزة أمام الإعجاز الرباني في تأليف الكون فتقول: «سبحانك... لا قدرة فينا... ربنا أنت القدير الأزلي ذو الجلال»[1].

فالطبيعة ليست طابعة، بل مطبع، ولا نقاشة بل نقش، ولا فاعلة بل قابلة للفعل.[2] وفي تحليله لأسباب الظواهر الطبيعية، يذهب النورسي أبعد مما يذهب إليه أصحاب النظرة «العلمية» المادية. فحينما كان بصدد تفسير ﴿إذا زلزلت الأرض زلزالها..﴾ في ذيل الكلمة الرابعة عشرة، ذكر زلزالاً حدث في زمانه في تركيا، وبين كيف أن الموقف «العلمي» في الزلازل يحيل السبب إلى تقلبات في جوف الأرض، فلا يبصر «العلماء» في ظاهرة الزلازل إلا مسألة طبيعية ومجرد مصادفة، «فلا يرون الأسباب المعنوية لهذه الحادثة ولا نتائجها»[3].

وقد دفع موقفهم النورسي إلى القول بأنه من «الحمق الشنيع الانسياق إلى الطبيعة ونسيان الأمر الإلهي»[4]، فالأرض مأمورة مسخرة يأمرها «سبحانه بالانفلاق إيقاظاً للغافلين وتنبيها للطغاة»[5].

فالأصل أن الأرض في حركاتها وزلزالها وحتى في اهتزازاتها أحياناً، إنما هي تحت أمر الله ووحيه[6]. ولكن الزلزال يؤدي إلى حدوث عذاب أليم فما سببه؟

وهنا يجيء الجواب من النورسي أن السبب هو «ما يقترف من الإثم والفجور من مجون وعربدة جهاراً نهاراً»[7].

ولست أرى في هذا المجون، وهذه العربدة؛ إلا مظاهر التغريب والإنبهار بالحضارة الغربية، الذي نذر النورسي نفسه لمواجهته. إذاً، فالزلزال جرس يدق باب

---

(1) الكلمات، ص ٣٣١.

(2) المصدر نفسه، ص ٣٢٥.

(3) المصدر نفسه، ص ٨٢٠.

(4) المصدر نفسه، ص ٨٤٢.

(5) المصدر نفسه والصفحة.

(6) المصدر نفسه، ص ١٩٨.

(7) المصدر نفسه، والصفحة.

المجتمع الآثم ليوقظه. بل عد النورسي من باب الإيقاظ أيضا الحرب العالمية، والسيول العارمة، والرياح الهوج، والصواعق المحرقه، والطوفانات المدمرة، وعد هذا من باب التربية الربانية العامة للبشرية[1].

وأما استخدام النورسي لنصوص القرآن الكريم في إثبات عدم استقلالية الأسباب بأي فاعلية حقيقية، فنراه في اقتباس الآية: ﴿قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم﴾.[2]

فهذا المثال استخدم من قبل علماء المسلمين، ومن ضمنهم الغزالي، ويستدل النورسي بهذه الأية على أن «النار كسائر الأسباب، ليس أمرها بيدها»[3].

ومعناه أن الأسباب لا تؤدي عملها بآلية، ولكنها تتبع مشيئة الله -عز وجل-، فلم تحرق سيدنا إبراهيم لأنها أمرت بعدم الحرق[4].

وليس فقط هذا، بل أمرت النار أن تكون برداً على إبراهيم -عليه السلام-، ولما كان البرد الشديد له أثر كالحرق، قيد الله تعالى البرد بـ«سلاما». ويخلص النورسي، في هذا السياق، إلى نتيجة مفادها أن الله سبحانه يجري إجراءاته في هذه الدنيا التي هي دار الحكمة تحت ستار الأسباب، وذلك بمقتضى اسمه (الحكيم)[5]. وهنالك بعد مهم جداً، وهو دعوة النورسي للأخذ بالأسباب الظاهرة مع عدم الاعتقاد باستقلاليتها، وهذا نشاهده من خلال دعوته لاتقاء شر النار في الدنيا: فهلموا واكتشفوا هذه المواد المانعة من الحرارة واستخرجوها من باطن الأرض والبسوها[6].

وهي دعوة لصناعة بدلات واقية من النيران، وهي دعوة تقي قائلها النورسي -رحمه الله- من نيران الذين يتهمون علماء المسلمين بأنهم أعداء التقدم.

---

(1) المصدر نفسه، ص ١٩٨.
(2) الأنبياء، آية ١٩.
(3) المصدر نفسه، ص ٢٨٨.
(4) المصدر نفسه، ص ٢٨٩.
(5) المصدر نفسه، والصفحة.
(6) المصدر نفسه، ص ١٩٩.

إن الباحث يرى أن الله -سبحانه وتعالى- قد قدر خواصاً في الأشياء، ومنها قدرتها على التأثير واستعدادها للتأثر بما يعرف بالعلاقة الطبيعية بين الأسباب والمسببات، ولكن الله -سبحانه وتعالى- قادر على سلب هذه الخواص حينما يشاء، وكيفما يشاء، مثل قصة إبراهيم -عليه السلام- مع النار. ويتبع من هذا أن على المسلمين أن يأخذوا بالأسباب، كما فعل نبينا محمد ﷺ، ولنا عبرة في قصة ذي القرنين في أواخر سورة الكهف، حيث أكدت الآيات على أخذه بالأسباب المادية عدة مرات، ولا يتعارض هذا مع حقيقة التوكل على الله -جل وعلا-، فهي من قدره.

وهنا، اختم هذا البحث بنصيحة من نصائح النورسي التي تتفق مع ما نحن بصدده حيث يقول: «إن كنت راشداً فحرّق حجاب الأسباب، وقل هو الله وحده لا شريك له».